الثقافة

من كتاب(1885-1888) Völkerkunde ، المترجم إلى
تاريخ البشرية بقلم(1896) A.J. Butler
فريدريش راتزل

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحررين

ربما يكون فريدريش راتزل (1844-1904) معروفًا بشكل أفضل كونه جغرافيًا سياسيًا ، وذلك بسبب تطويره لمفهوم - Lebensraum حرفيًا "**مساحة المعيشة**" أو **المنطقة الجغرافية** التي تتطور فيها الكائنات الحية . كانت Lebensraum شيئًا تحتاجه الدول الإقليمية - مثل ألمانيا - إذا كانت تريد النمو والنضج ، تمامًا كما يحتاج أي كائن حي نابض بالحياة إلى "مساحة للنمو" . بدون Lebensraum ، ستذبل الدولة - مثل نبات منزلي - وتموت في الصراع من أجل البقاء مع دول الكائنات الحية الأخرى . وبالتالي يمكن للمرء أن يقرأ عمل راتزل كونه مقدمة للداروينية الاجتماعية التي أثرت على قدر كبير من العلوم الاجتماعية في أوائل القرن العشرين . ولقد أوضح كتابه الجغرافيا السياسية (1897) طموحات ألمانيا التوسعية في إطار صراع داروينى من أجل البقاء .

ومع ذلك ، ورغم أن راتزل معروف بجغرافيته السياسية ، فإن كتابه الجغرافيا البشرية (1881 و1891) الذي يتألف من مجلدين جعله شخصية بارزة في دراسة الثقافة وتأثيراتها البيئية . ومن خلال ربط علم البيئة التطوري الذي تبناه تشارلز داروين وإرنست هيكل بأنماط الاستيطان البشري والتطور الثقافي ، يُنظَر إلى عمل راتزل عادةً كونه بيانًا عن الأسباب البيئية للسلوك البشري ، وهو التفسير الذي يُنسب إليه الفضل في إلهام ما أصبح يُعرف **بالحتمية البيئية** في أعمال الجغرافيين الأميركيين مثل إلين سمبل وإلسورث هنتنغتون .

لقد ميز راتزل بوضوح بين مفهومي الطبيعة والحضارة ، وعلى الرغم من ارتباط إرثه بالحتمية البيئية ، فإن ادعاءاته الفعلية أكثر دقة وتعقيدًا إلى حد ما . كان راتزل ينظر إلى الطبيعة والثقافة كقوتين متعارضتين تتصارعان من أجل الهيمنة على مسار التقدم البشري . كان المجلد Völkerkunde (1885-1888)، الذي أُخذ منه هذا الاختيار، مساهمة راتزل في النظرية الإثنوغرافية بشكل عام ، ودراسة العلاقة بين الثقافة والطبيعة بشكل أكثر تحديدًا . وعلى غرار المشاعر العامة لمنظري الثقافة في أواخر القرن التاسع عشر مثل إي. بي. تايلور ولويس هنري مورجان ، زعم راتزل أن دراسة الثقافة سمحت للطلاب بتقدير الجذور العميقة للبشرية في العالم الطبيعي بالإضافة إلى قدرة البشرية على تحرير نفسها من الطبيعة من خلال الثقافة .

قسم فولكركوند العالم البشري إلى "**أعراق طبيعية**" و"**أعراق مثقفة**" . والأخيرة هي تلك الأعراق التي تحررت من التربة ، في حين أن الأولى ما تزال مقيدة بالعالم الطبيعي . افترض راتزل أن مثل هذا الانقسام يمثل مسارًا للتقدم التاريخي ؛ كانت "الأعراق المثقفة" أكثر تقدمًا . ولقد لاحظ ، على سبيل المثال ، أنه في حين اختفت العديد من "الأجناس الطبيعية" نتيجة للاستعمار والصناعة ، فإن "العزاء" كان في معرفة " أن جزءاً كبيراً منها ينشأ ببطء من خلال عملية الاختلاط" مع "الأجناس المثقفة" . ومن السهل أن نرى في آراء راتزل هنا ادعاءً عنصرياً بتفوق أوروبا المتأصل على رعاياها المستعمرين . وقد تم بالفعل الاستشهاد بعمله في وقت لاحق كمبرر علمي لتفوق أوروبا على رعاياها المستعمرين . ولقد كان راتزل من أكثر

المفكرين الذين تأثروا بالنازية في القرن العشرين . ورغم أن آراء راتزل يمكن إدانتها اليوم كونها جاهلة وعنصرية ، فإنه كان ينظر إلى الثقافة من منظور أكثر نسبية من منظور عالم الأنثروبولوجيا وليس من منظور العنصرية البيضاء .

لقد أصر راتزل ، على سبيل المثال ، على **أن كل الأجناس ، سواء كانت "طبيعية" أو "مثقفة" ، تتمتع بالثقافة** . وزعم أن كل البشر يولدون بالقدرات الأساسية للعقل والذكاء نفسها ؛ ولكن بعضهم تعوقه الظروف البيئية الاجتماعية الداخلية والخارجية أكثر من غيرهم . وزعم راتزل أن **"كل شعب لديه مواهب فكرية** . **وكل شعب يستطيع أن يزعم أنه يمتلك قدراً معيناً من المعرفة والقوة التي تمثل حضارته** . ولكن الاختلاف بين "مجموعات اكتساب الذكاء" المختلفة لا يكمن في حجمها فحسب ، بل وفي قدرتها على النمو . ولنستخدم صورة توضيحية ، فإن العرق المتحضر يشبه شجرة عظيمة... فهناك نباتات... تموت كل عام... إن التمييز يكمن في القدرة على الاحتفاظ بنتائج كل عام فردي من النمو وتكديسها وتأمينها... **فالحضارة هي نتاج أجيال عديدة من البشر... وتطور الحضارة هو عملية اكتناز."**

ومثل الشجرة ، إذن ، **كانت الحضارة "متجذرة" في التربة** . وبينما يمكن مقارنة الحضارات البشرية بهذه الطريقة بالكائنات الحية الطبيعية ، **فإن الثقافة كانت شيئًا جعلنا في نهاية المطاف مختلفين عن النباتات والحيوانات الأخرى في العالم الطبيعي** . كان راتزل مغرمًا بالإشارة إلى أن **الثقافة** تشير أيضًا إلى حرث الأرض . لقد **كشفت عن ارتباطنا بالتربة وهيمنتنا على الطبيعة بفكرنا** . ومن خلال حرث التربة ، مع تقسيمات العمل المرتبطة بها ، نشأت الحضارات الأكثر تقدمًا . لكن راتزل لاحظ أنه على مدار التاريخ كان هناك صراع بين الحضارات المستقرة للفلاحين وإمبراطوريات الرعاة الرحل .

في الاختيار أدناه نرى ، على سبيل المثال ، حجة راتزل التي تقول إنه عند النظر في أصول الثقافة المصرية القديمة ، يجب على المرء أن يبحث عن سياق أوسع من الروابط عبر الكتلة الأرضية الأفرو-أوراسية ، وأن مصر اكتسبت ثقافتها من خلال المهاجرين من آسيا . كما لاحظ أن الثقافة الصينية - التي طالما عدت أنها نشأت في عزلة متجذرة - هي نتاج الروابط عبر آسيا بقدر ما هي نتاج للعزلة . قد تكون الحضارة مثل الشجرة ، إذن ، لكن الثقافة تنمو وتنتشر . يمكن النظر إلى ادعاءات راتزل هنا مرة أخرى كونها مجرد احتفال رقيق بانتشار الثقافة الأوروبية إلى "الأجناس الطبيعية" ، وتبرير الطموحات الاستعمارية لألمانيا بالعلم . ولكن من الجدير بالذكر أيضًا أن وجهات نظره حول أهمية الاختلاط الثقافي والروابط عبر الفضاء تشير إلى فهم أكثر تعقيدًا للتغير الثقافي .

هناك ثروة من الدراسات حول الجغرافيا السياسية لراتزل وإرثه في هذا التخصص بشكل عام . إن مقدمة جيدة لهذا الموضوع يمكن أن نجدها في كتاب فريدريش راتزل وأصول المجال الحيوي لـ دبليو.دي. سميث (مراجعة الدراسات الألمانية ، العدد 3، 1980). فعند قراءة راتزل من منظور جغرافية الثقافة المعاصرة ، نتعلم أن عمله كان يقع في سياق اجتماعي للاستعمار الأوروبي الذي فهم الحضارة الأوروبية كونها ذروة التطور الثقافي . كما نتعلم أن أوصاف الاختلاف الثقافي لا يمكن أن تتم إلا بطريقة تأخذ في الحسبان مثل هذا الاختلاف من حيث استمرارية مفترضة للتقدم والارتقاء نحو فهم معين لما يعنيه أن تكون "متحضرًا" . وهذا يمثل بالطبع نهجًا مختلفًا تمامًا لفهم الاختلاف عن النهج المتبع عادة في الدراسات العلمية اليوم ، حيث يمكن أخذ هياكل القوة الاجتماعية غير المتكافئة في الحسبان ، بدلاً من المجموعات التي تحتل مواقع مختلفة على طول خط زمني واحد للتطور التاريخي .

فيما يتعلق بنمو الثقافة و وجودها ، فإن الشرط الصحيح هو أن يتم تعزيز الثقافة من خلال أي شيء يثبت الإنسان المتحرك ، والشيء الذي له هذا التأثير بشكل واضح هو خصوبة التربة جنبًا إلى جنب مع المناخ المقبول . يطبق الإنسان الثابت على الطبيعة مقياسًا مختلفًا تمامًا عن ذلك الذي يطبقه الإنسان الذي يعيش في

مكان مؤقت ؛ فهو يسأل ، ""أين لدينا ضمانة الإقامة الدائمة ؟"" وفي حديثه عن تشاكو، يقول دوبريزوفير: ""ينظر الإسبان إليها كونها ملتقى كل البؤس ، لكن المتوحشين "كأرضهم الموعودة وجنة لهم ." لم يبدأ الأوروبيون الذين شقوا طريقهم إلى أمريكا بإقامة الخيام وإنشاء المراعي على التربة البكر؛ بل بنوا منازل ومدنًا من الحجر. غزا كورتيس المكسيك في عام 1521، وفي ذلك العام وُضِع أساس الكاتدرائية الحجرية ؛ والتي تبدو وكأنهم كانوا يعتزمون البقاء .

في ذلك التاريخ ، كانت البشرية قد تعلمت منذ فترة طويلة على أي تربة ستتجذر الثقافة بنجاح . المكسيك وحدها ، مع هضبتها التي ينمو فيها القمح مثل قشتالة ، حصلت على الاسم المشرف إسبانيا الجديدة . في الطقس الدافئ ، كانت المكسيك موطنًا للعديد من الثقافات ، بما في ذلك الرومان ، الذين عاشوا في أمريكا الوسطى . ولقد كان من المأمول أن يتجذر سليل الثقافة الإسبانية القديمة في أسرع وقت ممكن ، وذلك بفضل المعرفة العميقة الغريزية بضرورة وجود تربة مواتية للزراعة . وهكذا انتشرت الثقافة في أنحاء العالم الجديد ، بفضل المعرفة العميقة الغريزية بضرورة وجود تربة مواتية للزراعة .

وتحررت الحياة المادية للشعوب قبل الحياة الروحية من القيود التي كانت مقيدة بها بسبب الكسل وانعدام الأمن ونقص الضروريات والعلاقات . وتشكل قائمة كبيرة من الاختراعات الأساس لما نسميه الثقافة شبه الثقافية . فقد وجدنا الأسلحة والأدوات المركبة ، مثل الأقواس والنشاب والدروع القابلة للإزالة والحراب والمحاريث والعربات والمثاقب وعجلات الفخار والدفات والقوارب الشراعية والزوارق ذات المحركات ، في المراحل الدنيا . وكل هذه الأدوات تتطلب المزيد من العمل ، والعمل يعطيها قيمتها . لقد تنبأ جاكومونت بأن أميركا الإسبانية الواقعة في المناطق الاستوائية سوف تعود إلى حالتها قبل عام 1492. "ستصبح أرضاً بلا سكان ، بلا ثروة ، لأنها تستطيع الاستغناء عن العمل" **. لقد تراجعت الثقافة دوماً حيثما تباطأت العمالة . إن القول بأن "العمل ينبل" صحيح على نطاق عالمي ؛ فالعمل خلق نبلاء البشرية** . إن أكثر الأجناس شبه المثقفة عملاً ، الصينيون ، يتمتعون باحترام كبير بين شعوب آسيا . بعد العمل نفسه ، يعد **تقسيم العمل** بلا شك أهم شرط للتقدم في الثقافة ؛ فهو يكمن في المقام الأول في تنظيم الحشد الموحد وفقاً للوظائف الاجتماعية

لقد أشرنا في وقت مبكر من مجلدنا الأول إلى التحالف الوثيق بين الثقافة والزراعة ؛ وما يزال من الواجب التحدث عن أهميته بالنسبة للأجناس المثقفة . من اليابان إلى مصر ، توفر الأرض الأساس لإمدادات الغذاء ، وهي تحظى باحترام كبير لدرجة أن المحراث لم يكن غير مناسب ليد الإمبراطور . إن إنقاذ الأراضي المملوكة من تدفق البدو هو هدف المعارك التي لا تنتهي بين الفلاحين والرعاة . إن جهود الدول المتحضرة موجهة نحو الحصول على إمدادات غذائية مستقلة لشعوبها ، وأن لا تكون مدينة لأحد في ذلك . **في الصين ، فإن أعلى مديح يُمنح للإمبراطور هو أنه أطعم شعبه في سلام** . **في كل مكان ، فإن زراعة الأرض بشكل أفضل هي أكثر ما يميز الزراعة لدى الأجناس المثقفة** . وبالتالي نحصل على تناوب المحاصيل والتسميد وزراعة المدرجات والري والمحراث والمجرفة . تشير هذه الأدوات بوضوح إلى خط حدودي في الثقافة . يشير المحراث بشكل خاص إلى نظام اقتصادي مختلف : تصبح المزرعة الكبيرة مع العبيد والماشية ضرورية بمجرد أن مساحات كبيرة من الأرض تخضع للزراعة . وفي أوروبا الشرقية ، ما تزال بلاد السهوب تمتلك محاريث أثقل وزنًا وتعرف استخدامها بشكل أفضل من بلاد الغابات . ولكن بين جميع الأجناس التي تمتلك المحراث ، نجد أيضًا زراعة المجارف والبستنة .

كما يختلف اختيار النباتات ، فالحبوب من جميع الأنواع ، الصالحة للتخزين ، تهيمن على الأرز في شرق آسيا ، والدخن في الهند ، والقمح في غرب آسيا ؛ وكذلك البقول في كل مكان . والموز، الذي يمكن القول عنه ، كما يقال عن المن عند بني إسرائيل ، "كان يضبط نفسه حسب ذوق كل إنسان" ، وبشكل عام ، تظهر عائلة الفاكهة والجذور بأكملها التي تنتج بسهولة وبوفرة ، ولكنها ليست مغذية للغاية ، انحدارًا ملحوظًا

. تأتي أصناف الحبوب من الأراضي العشبية الطبيعية في آسيا ؛ والعشب الذي تنبت منه قد وطئته أسلاف الثور والحصان . لقد تم الحصول على أهم الحيوانات والنباتات المنزلية من السهوب . وبشكل عام كانت ظروف العالم القديم هي الأكثر ملاءمة لاختيار النباتات القابلة للزراعة والحيوانات القابلة للتدجين ، وكان بإمكان آسيا أن تقدم الأنواع الأكثر أهمية بأعداد أكبر.

بالمقارنة مع الترحال ، تتمتع الزراعة بنصيب من قوة الانتظار التي تنتمي إلى حد كبير إلى الثقافة الأعلى ، الثقافة المستقرة . فكلما زاد رأس المال من العمل الذي يتم وضعه في الأرض التي تحمل المحاصيل ، أو كلما تم بناء الأكواخ والمنازل والمعابد والتحصينات بشكل أكثر صعوبة ، **كلما تمسك الإنسان بها بشكل أقوى ، جسديًا أولاً ثم عقليًا** . رفض غونار في ملحمة نيالس مغادرة منزله بعد أن "أصبحت حقول الذرة بيضاء للحصاد ، وتم جز مرج المنزل" ، وبقى ليواجه وفاته . إن البدوي ، حتى عندما يتجول في حدود ضيقة ، لديه منزل جديد على الأقل في كل موسم من السنة ؛ ويتمسك المزارع بموطنه مع مرور القرون . وعندما يبتعد البدوي مسافة ميلين بين الشتاء والصيف ، فإن فلاح الأرض لا يزرع حقلاً جديدًا إلا في أقصى تقدير للحقل القديم ، والحدود الثابتة تأتي مع محطة ثابتة .

كم ترتبط معالم الحدود ارتباطًا وثيقًا بالزراعة ! عندما يمتدح هوراس حياة الريف ، فإنه لا ينسى آلهة الحدود . فالزراعة تخدم الحاجة الأكثر إلحاحًا ، وتترك خلق القيم التبادلية والأشياء الفاخرة لتربية الماشية والصيد وصيد الأسماك . وتربية الماشية هي التي تشكل رأس المال أولاً ؛ أما القطيع فهو كنز متنقل . وإذا كانت الزراعة تنتج أهم مكونات الغذاء ، فإنها لا تنتج أي شيء آخر . إن كل يوم من أيام السنة لا يكفيه ما يحتاجه الإنسان . فالحظيرة لا تقل أهمية عن المحراث ، سواء كانت على شكل كوخ قائم على أعمدة ، كما نجد في نهر النيجر إلى نهر آموس ، أو الجرة الفخارية عند الكفار ، أو القبو المخبوز تحت الأرض في شبه الجزيرة العربية والتبت .

ولا ينبغي للمحاصيل الحقلية ، مثل الدخن عند الزنوج ، أن تذبل بسرعة بحيث يتعين تخمير البيرة للافادة منها . ومن خصائص جميع الحبوب الاستوائية أنه لا يمكنك خبز ما نسميه خبزًا منها ؛ فقط خبز العرب ، وهو عبارة عن مخمدات جلدية صلبة يجب تحميصها على صفيحة من الحديد ، يمكن صنعها من العجين المخمر . والواقع أن الخبز بالمعنى الأوروبي غير معروف لأي عرق آسيوي . يظهر الأرز، في تحضيرات رطبة ، كغذاء أساسي في شرق وجنوب آسيا . ومع ذلك ، بغض النظر عن مدى غلبة هذا ، فلا يوجد عرق مثقف يأكل الأرز فقط . بل إن اللحوم والأسماك مع الأطعمة النيتروجينية الأخرى ، مثل الفاصوليا ، تأخذ مكانها إلى جانبه .

والواقع أن تنوع الأطعمة بين جميع الأعراق المثقفة كبير، كما أن حاسة التذوق تجذبهم في مرحلة مبكرة للغاية . ولا يعد الإعجاب بالحشرات والديدان علامة على انخفاض الثقافة . ولا يقتصر الأمر على القبائل الزنجية المستعربة التي تشكل الجراد ، والخنافس المائية ، واليرقات ، من الأطعمة الشهية ذات القيمة العالية ؛ بل إن مثل هذه الأطعمة موجودة في الهند والصين . ويقول المثل العربي : "جرادة في اليد خير من ست في الهواء ." والواقع أن نزوات الذوق في روما القديمة وأوروبا الحديثة معروفة بأنها تذهب إلى أبعد من ذلك .

إن النشاط الإبداعي الصامت للثقافة لا يقاس بزيادة المسافة ، بل بنمو عدد الأشخاص الذين يستطيعون العيش بشكل دائم في منطقة ضيقة . ففي التربة الخصبة ومع العمل الجاد تنمو الكثافة السكانية ، وهذا ما تحتاج إليه الثقافة . إن الحقائق العظيمة لانتشار البشر على الأرض ، بكثافة أكبر وأقل ، تقف في ارتباط وثيق بتطور الثقافة . **فحيثما يكون السكان متناثرين بشكل ضئيل على مناطق واسعة ، تكون الثقافة منخفضة** . ففي العالم القديم ، تكون منطقة السهوب في كل مكان مأهولة بالسكان بشكل ضئيل ، في حين أن البلدان

المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط - مصر وجنوب شبه الجزيرة العربية والهند والصين واليابان - مأهولة بالسكان بشكل كثيف . **ينتمي ستة أسباع سكان الأرض اليوم إلى أراضي الثقافة** . يبلغ عدد سكان الصين والهند 700 مليون نسمة ؛ وفي المنطقة المقابلة من منطقة البدو في آسيا الوسطى في منغوليا والتبت وتركستان الشرقية ، ما يزيد عدد سكانها عن ستين مليون نسمة .

إن مرحلة الثقافة تتوافق مع طريقة انتشارها . وعندما تدرك هذه الثقافة هذا ، لقد سمح الأوروبيون ليس فقط بفضل تفوقهم في كل ما يتعلق بالثقافة ، بل وأيضاً بفضل الزيادة السريعة في أعدادهم ، بالانتشار بسرعة في جميع أنحاء الأرض ؛ ولكن بفضلهم أيضاً ، ارتفعت الرغبة في عدم ترك أي فجوات في الأرض إلى مستوى مبدأ من مبادئ السياسة . **لقد تم ببساطة إقصاء السكان الأصليين المعوقين .** حتى العرق "الطبيعي" القاسي لم يتمكن قط من إخلاء بلد مثل كوبا من السكان في غضون بضعة أجيال وتزويده بسكان جدد ؛ ولكن الحضارة تمكنت من ذلك .

تحتل الزراعة أراضيها بطريقة أخرى غير الفتح الحربي . يغطي الأول قطعة تلو الأخرى تدريجياً ولكن بنجاح دائم ، يحدد الأخير حدودًا واسعة . يسافر الأول خطوة بخطوة ، ويطير الأخير بسرعة عبر مساحات واسعة . وبالتالي فإن الأول مؤكد في عواقبه ، إذا سمح الوقت بذلك ، في حين أن الأخير عابر، أو على الأقل غير قابل للحساب . كان متوسط السرعة التي تحرك بها الرجال البيض غربًا ، حتى قفزوا من نهر ميسوري إلى المحيط الهادئ ، عشرين ميلاً في السنة .

خلال ثلاثة قرون ، فازت الصين بثقافتها بأراضيها خارج سور الصين العظيم ، والتي كانت ذات يوم حضانة لأخطر جحافل البدو ؛ وفي الوقت نفسه ، حملت روسيا مجموعة من الثقافات عبر شمال آسيا إلى المحيط الهادئ . وقبل هذا التقدم البطيء ولكن المؤكد ، لا يتعين على الأجناس "الطبيعية" فحسب ، بل وأيضًا البدو، أن يفسحوا المجال . يتم سحب أفضل الأراضي منهم بواسطة المستعمرات الزراعية ، وتأتي المياه التي لا غنى عنها إلى حيازة المستوطنين الذين يقومون بتخصيب الرمال وربطها معًا ، ويتم طرد البدو من الأراضي العشبية إلى الشجيرات ومن ثم إلى الصحراء . هناك يصبح فقيرًا ويهلك . كيف وأين تكيف مع حياة مستقرة سنضطر إلى إظهار ذلك .

إن القانون في تطور الثقافة هو **أنه كلما ارتفع مستوى الثقافة كلما كانت بداياتها أكثر غموضاً** . فهي تقلب دوماً تربتها ، والحياة الجديدة تدمر بقايا الحياة القديمة التي ازدهرت عليها . وفي تربة حضارات العالم القديم ، تشهد الأدوات الحجرية وحدها على الظروف السابقة . ولكن بما أننا لا نعرف عمر الأدوات والأسلحة الحجرية الموجودة في الأرض ، فإننا لا نعرف ظروف أولئك الذين استخدموها . ولا تقدم هذه الأدوات والأسلحة إجابة واضحة عن الأسئلة المتعلقة بعمر الثقافة . إن الآثار الحية للعصر الحجري تجعلنا على الأقل ندرك أن طول الفترة وارتفاع المرحلة التي تقسم الملكية كانا مختلفين . إن استخدام الحجارة لا ينبغي أن نبالغ في تقديره .

فحتى الآن ، يجد العرب النوبيون سكينًا حجريًا مناسبًا بشكل خاص للختان ، وكذلك لحلاقة الرأس . ويقول بليني إن البلسم كان يُستخرج في سوريا من الأشجار بسكاكين من عظام حجرية ، أو زجاج ، لأن استخدام الأدوات الحديدية كان يتسبب في ذبول الساق . ويبدو أن وجهة نظر شفاينفورث ، القائلة بأن الأسلحة الحجرية الصغيرة التي نادرًا ما تستخدم والتي عثر عليها لينز وآخرون في الصحراء الكبرى ، لم تُصنع إلا في أوقات لاحقة لأغراض دينية أو خرافية ، مقنعة . وتُظهر اكتشافات الأدوات الحجرية في الهند واليابان أن استخدام الأسلحة والأدوات الحجرية هناك لم ينقرض منذ فترة طويلة . كما توجد أدوات حجرية ممتازة بأعداد كبيرة في تربة مصر، بحيث يمكننا أن نفترض بأمان أن ذلك البلد كان في العصر الحجري . ويمر الجسر منها إلى عصر الثقافة عبر ندرة الحديد التي ميزت مصر القديمة .

ألا يمكن أن تكون أصول هذه الثقافة في مكان آخر؟ كلما توغلنا في الطبيعة الداخلية للثقافة المصرية ، كلما اتضح لنا بشكل أكثر وضوحًا أنه لا ينبغي عدها ظاهرة معزولة . فمهما كان طابعها الخاص ، فإن أفكارها الأساسية تتفق مع ما نراه في الشرق . فالكتابة ، والمفاهيم الدينية ، والعلوم الفلكية والرياضية ، والقدرة التقنية ، والحكومة الدينية ، والتنظيم على أساس الطبقات ، والأشكال التي تقوم عليها العمارة والنحت ؛ كل ذلك يشكل أساسًا متساويًا لثقافة بلاد ما بين النهرين ، وشرق وجنوب آسيا . وتتحد ثلاث مجموعات من الحقائق لإثبات أصل غير أفريقي للمصريين . وتشير الخصائص الفسيولوجية إلى ارتباطهم بأعراق غرب آسيا وجنوب أوروبا . في لوحاتهم ، ميز المصريون أنفسهم عن جميع الأفارقة الآخرين من خلال اللون - الأسود للرجال الجنوبيين ، والرمادي لكبار السن الليبيين ، والأبيض والأحمر للشباب .

ومرة أخرى ، لا تظهر اللغة في أقدم الآثار، ولا في المخطوطات القبطية ما بعد المسيحية ، أي أثر للتقارب الأفريقي ؛ بل إنه من المستحيل تقريبًا ، كما يقول بروجش ، "أن نخطئ في العلاقات الوثيقة التي سادت سابقًا بين المصريين وما يسمى بالأعراق الهندية الجرمانية والسامية" . وأخيرًا ، تقع أقدم المساكن الثقافية في دلتا النيل ، في الأجزاء الخارجية ، أو مصر السفلى التي تطل على شبه الجزيرة العربية ، وفينيقيا ، وفلسطين - أي نحو غرب آسيا والبحر الأبيض المتوسط ، وفي بلد الانتقال بين آسيا وأفريقيا . "وعندما نتقدم على طول النيل ، بينما يختفي طابع العصور القديمة على الآثار، فإن الانحدار في الأسلوب والجمال والمهارة يصبح أكثر وضوحًا . وعندما نتقدم أخيرًا إلى إثيوبيا ، حيث كان من المفترض أن نبحث عن مهد العرق المصري ، وفقًا للفكرة القديمة ، نجد ، على حد تعبير بروجش مرة أخرى ، ""كونها تتويجًا للقدرة الفكرية والتطور الفني في إثيوبيا ، وتقليدًا عاجزًا للمعرفة المصرية في كل ما يتعلق بالعلم والفن"".

إن آسيا وحدها ، في أماكن مفضلة مختلفة ، يمكن أن تشير إلى التطورات المبكرة للثقافة ؛ بينما لا يمكن لأفريقيا ، حتى للمراقب الأكثر حماسة ، أن تظهر سوى البدايات ، وحتى هذه البدايات ما تزال مشكوكًا فيها . وتكمن صعوبة السؤال في حقيقة مفادها أنه في اللحظة التي يخطو فيها المصريون إلى التاريخ ، فإنهم مرتبطون بالفعل بأرضهم بشكل حاسم لدرجة تبرر عمليًا تقاليدهم الخاصة بأنهم من السكان الأصليين . لا نجد أي أثر لعدم استقرار المهاجرين . ولا شك أن "الهجرة" لا تنطبق على أعراق بأكملها ، بل على أجزاء صغيرة فقط ، تجد أناسًا هناك في وطنها قبلها ، وتطبع طابعها عليهم بما يتناسب مع عددهم وقوتهم . وهذا هو الاستعمار.

والاستنتاج ليس بعيدًا : أن عرقًا مستقرًا بالفعل ، يمتد على جزء كبير من شمال وشرق إفريقيا ، تلقى بذور ثقافته من خلال الهجرة من الخارج . وبالتالي ، يمكن حل مسألة النسب على النحو الاتي : لا يمكن إثبات أصل أجنبي للجزء الأكبر من شعب مصر. لكن الارتباط بالثقافات الأخرى يفترض الهجرة الجزئية من آسيا ، والاتصال الدائم بها. وبما أن عناصر الثقافة الوفيرة في العصور القديمة لم تدخل إلا بصحبة الرجال ، فقد أصبح اختلاط الدم الآسيوي أمرًا مؤكدًا أيضًا . لقد سبقت رحلات المصريين إلى بلاد بونت ، أرض البلسم ، والتي تتبعوا فيها أصولهم ، رحلة سليمان إلى أوفير على مدى قرون . ولم تكن الثقافة المصرية دائمًا شيئًا منفصلاً . ففي الشمال ، كان يعيش أكثر الأجناس اتساعًا في العالم في ذلك الوقت ـ الفينيقيون ـ والمستوطنات الفينيقية في الشمال والغرب . أما بالنسبة لجنوب شبه الجزيرة العربية ، فلا شك أن رعاة السهول العربية لم يمارسوا دائمًا التأثير الذي جعل الأرض ـ خاملة . فقد كان من الممكن أن يكون لخصوبة التربة ، والموقع الملائم للتجارة والبحرية ، والكثافة السكانية ، تأثيرًا أكثر حرية . ولعل قاطاني جنوب شبه الجزيرة العربية كانوا الأكثر شبهًا بجيرانهم في مصر .

بلاد ما بين النهرين ، كان لديهم نظام معقد للعبادة ، وآثار دينية ، ومؤسسات سياسية مكتوبة وتصويرية ، ومدن مزدهرة ، وتنظيم اجتماعي متقن . وعلى ساحل جنوب شبه الجزيرة العربية كانت هناك أسواق

للبضائع الهندية وشرق إفريقيا . ولكن تاريخ التفاعل بين مصر والشعوب المجاورة غامض فقط في تلك الأقسام الأكثر أهمية بالنسبة لنا لفهم مسار تاريخ العالم . ولم يكن الأمر كذلك إلا في الأزمنة الحديثة نسبيًا عندما دخلت مصر في اتصال بدول بلاد ما بين النهرين ، والتي يجب أن نعدها متصلة منذ القدم من خلال الوصول إلى مخزن مشترك للثقافة . ولكن أصل ثقافتها وشعبها يقودنا إلى آسيا . ليس فقط أن حلقة واحدة في سلسلة حضارات العالم القديم تسمح لنفسها بالانضمام إلى بقية الحضارات ؛ بل إن تفسير وجودها لا يمكن أن يكون ممكنًا إلا على هذا الافتراض .

وعلى الطرف الآخر، وعلى نحو مماثل ، نجد منطقة ذات ثقافة مماثلة ، بل وربما أقدم ، في **الصين** ، ودولتيها الابنتين كوريا واليابان . وقد رأى البعض في بوذا كاهناً هارباً لإيزيس ، ومن خلال هذه الروابط الوثيقة لابد أن تكون قد وحدت مصر والصين ؛ في حين افترض آخرون أن الصين كانت تتمتع بتطور مستقل تماماً . والفكرة الأولى ، وإن كانت رائعة في شكلها ، تحتوي على بذرة من الحقيقة ؛ أما الفكرة الثانية ، التي عبر عنها بيشيل في مدحه للصينيين كونهم علموا أنفسهم ، على النقيض من "تلاميذ الأمم المدفونة تاريخياً" الأوروبيين ، فهي ليست غير تاريخية فحسب ، بل إنها غير جغرافية على الإطلاق .

ومن الغريب أن تلك التي تقع بين نهري الفرات ودجلة تشبه مصر ـ واحة عظيمة ، محاطة بمنطقة صحراوية في معظمها ، وترتفع في الشمال والشرق إلى مرتفعات تشكل حدودها ؛ "إنها أيضًا تقع في مناخ قريب ، **وهي هدية من المياه بكلا المعنيين** ، أي كأرض طمية ، وكأرض يجب أن تستعيد خصوبتها من خلال الفيضانات والري الاصطناعي . والتشابه كبير لدرجة أن فكرة القرابة تفرض نفسها علينا . هنا أيضًا ، سافرت الثقافة إلى أعلى النهر، بعد أن خرجت من الماء أسطوريًا وحرفيًا . في أقدم العصور، والتي تعود إلى ما قبل مصر، كان مقرها في بابل ، ولم تصل إلى آشور إلا في وقت لاحق . في أقدم الآثار نجد الكتابة الهيروغليفية ، مثل تلك الموجودة في مصر نتيجة للرمزية التي تطورت في شكل واحد من الكتابة المسمارية ، ومعها البهجة نفسها في التسجيل ، ونفس العناية بالتقاليد ، وحتى الآثار الضخمة ."

إن التقاليد التي تبني الأهرامات لإقامة المعابد عليها ـ أقل متانة من التقاليد المصرية ، لأن ثقافة بلاد ما بين النهرين لا تعمل إلا بالطين . وإذا ما فحصنا الحياة الداخلية نجد كهنة كثيرين لا يقلون قوة ، وينتمي إليهم هذا الشيء بمعنى ما ، وتذكرنا تقاريرهم المطولة عن الانتصارات والمذابح الظافرة بأسلوبهم الخاص ـ بالألواح التاريخية للفراعنة . أما الدين ـ الذي كان منتشراً بين قوى وظواهر الطبيعة ، حيث الشمس هي العليا ـ وعلم الفلك والمسح ، فكانا من اختصاص الكهنة ، ولم يكن بوسع العلم ـ هنا ، كما لم يكن بوسعه في مصر ـ أن يتحرر من علم التنجيم والسحر، حتى وإن كان قد أحرز تقدماً في مجال الملاحظة .

إننا نملك معلومات أقل عن الفن البابلي القديم مقارنة بالفن المصري ؛ ولكننا نعلم ـ هنا أيضاً ـ أن أفضل الأعمال الفنية هي الأحدث . إن البابليين والآشوريين متأخرون كثيراً عن المصريين في المواهب الفنية ، ولكن ترفهم الهائل كان في صالح الفنون الأقل شأناً ، ولابد أن نترك مسألة الأكاديين والسومريين ، الذين يُزعم أنهم رواد تورانيون ومبدعو الثقافة البابلية والآشورية ، للباحثين التاريخيين .

وبالنسبة للهكسوس أيضاً ، فمن المحتمل أن يكون أصلهم من آسيا الوسطى . وفي الوقت الحاضر، لا نملك إلا أن نتعامل مع الساميين ، سواء كانوا مستقرين كما في بابل وآشور، أو كغزاة رحل مثل الكلدانيين ، الذين غزوا ، وبنوا على المواد الوفيرة التي جمعها أسلافهم المبدعون . وفي الجنوب والشرق ، نضجت في آسيا حضارات أخرى ــ الهندية والصينية ــ الأولى حملها الآريون ، والثانية حملتها أعراق من أصل منغولي ؛ وما تزال هذه الحضارات باقية . وتأتي الثقافة الصينية في المرتبة الثانية من حيث العمر بعد حضارات الحاميين والسامية ؛ وفي طبقاتها العميقة ، ما يزال هناك الكثير مما يذكرنا ببابل وممفيس، في بقايا مخفية تحت ستار من الأصالة .

ومن المضلِّل أن نبحث عن السمة الرئيسية في تاريخ السياسة والثقافة الصينية ، كما في مصر، في عزلتها ؛ ولا ينبغي لنا أن نؤكد بتهور على التباين بين الصينيين وسكان المناطق الحدودية في غرب وجنوب القارة . ويقال إن كل شيء ، سواء الفتح أو التجارة ، يتجه غربًا ، خارج جبل بلور، كما كان الحال مع الفينيقيين ، ونبوخذ نصر، وكورش ؛ وعلى الجانب الآخر، يكتفي الناس بأنفسهم ، وهنا ، وبالتالي ، تتطور الثقافة ، التي تعززها الطبيعة ، في وقت أبكر بكثير، وبوفرة واكتمال ، لكنها تظل ثابتة لعدم وجود منافسين أو مخاطر . على أي حال ، وعلى الجانب الشرقي من آسيا، لا مجال لفصل وإعادة توحيد الثقافات الآرية والكلدانية والمصرية ، أو تبادل مثمر، مثل الذي نسج الخيوط الأكثر وفرة في شبكة حضارتنا . ولم ير الصينيون أي عرق بالقرب منهم يمكنهم الاعتراف به على أنه مساوٍ لهم ، أو لا يشعرون بأنهم متفوقون عليه كثيرًا بما حققوه . وكانت اليابان وكوريا مجرد ثقافات شاذة عن الثقافة الصينية . وقد حدث شيء من النوع نفسه مؤقتًا في الغرب - في مصر؛ لكن مصر لم تستطع البقاء بعيدة لفترة طويلة .

والصينيون واليابانيون وكوريا هم الشعوب الوحيدة التي استمرت خصوصيتها حتى يومنا هذا تقريبًا . ولا شك أن هذا كان له تأثير عميق ليس فقط على ما فعله الصينيون ، بل وأيضًا إلى حد ما على ما هم عليه الآن . ومع ذلك ، لم يغلقوا أنفسهم منذ البداية ، وبقصد واعٍ . لقد كانت هناك فترة من التفاعل النشط مع الغرب والشرق ، وهي فترة ليست من عصور ما قبل التاريخ بالكامل . لقد دخلت القوى العظمى في الحياة الصينية من الخارج ، إن لم يكن ببذخ وأصوات الأبواق . ومع ذلك ، فقد دخلوا .

نرى البوذية والمحمدية تصبحان قويتين في الأرض المنعزلة ؛ والمسيحية ، أكثر قوة ، في العصر النسطوري ؛ ومرة أخرى ، في بداية سلالة المانشو ، في البعثات المنتصرة لليسوعيين . عندما ننظر إلى الحقائق نرى أن ما هو مهم في الثقافة الصينية ليس العزلة ولكن الاتصال . لقد عاش الصينيون في الألف عام الماضية أو نحو ذلك في عزلة هادئة ، ولكن الأفكار التي تشكل أساس الثقافة القديمة أصبحت عظيمة في الجمع والاتحاد . إنهم ينتمون إلى عصر بعيد جدًا لدرجة أن تاريخ الأجناس المثقفة لا يعود إلى ذلك العصر . ولكن تكرارها بين الممتلكات الفقيرة المتخلفة للأجناس "الطبيعية" يشير إلى التركيبة القديمة . ليس في هذه الحالة فحسب ، بل وفي دراسة كل مجال من مجالات الثقافة ، حتى الثقافة المصرية ، فإن أعلى مكانة بين المشاكل الكبرى يحتلها دائمًا التحقيق في اتصالاتها وعلاقاتها ، وعطاءها وأخذها في مد وجزر تيار الثقافة والفكر . هنا ينتقل اهتمام التاريخ الخاص إلى اهتمام تاريخ البشرية . كل الأسئلة الأخرى بالنسبة لنا ذات أهمية تحضيرية فقط .

ومن بين أدوات الثقافة ، التي يُنسب اكتسابها ، وفقًا للتقاليد الصينية ، إلى الإمبراطور هوانج تي ، يشير العديد منها إلى غرب آسيا . مثل ناخونتي ، إله سوزيانا ، أسس هذا الملك الأسطوري دورة من اثني عشر عامًا ، واستقر في السنة على 360 يومًا ، مقسمة إلى اثني عشر شهرًا ، مع شهر إضافي . تحمل أسماء الأشهر نفس المعنى كما هو الحال في بابل . يذكرنا مرصده بأعمال مماثلة في تلك المنطقة . مع هؤلاء الفلكيين في غرب آسيا ، لا تشترك الصين القديمة في تفوق مراقبة النجوم بين العلوم فحسب ، بل تشترك أيضًا في الطريقة الحميمة التي تتشابك بها ، كعلم التنجيم ، مع جميع شؤون الحياة .

الصينيون هم الأمة الوحيدة في الوقت الحاضر التي يمكن أن نرى فيها غلبة علم الخرافات هذا في بلاد ما بين النهرين القديمة . كما يعرفون خمسة كواكب ، أربعة منها لها أسماء ذات معنى مماثل لتلك المخصصة لها في بابل ؛ ولقد تشابكت حولهم شبكة من التنبؤات والنبوءات التي تذكرنا مرة أخرى بغرب آسيا . وعند النظر إلى المخزون المشترك من الثقافة ، فقد كان من الواجب دائمًا أن نولي أهمية كبيرة للاتفاق الملحوظ للمفاهيم الفلكية التي تربط بين شرق وجنوب وغرب آسيا . وفي التقسيم المشترك لمنطقة مسار الشمس إلى سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين جزءًا ، والتي تم تحديدها ، في إشارة إلى المسار المعقد للقمر،

على أنها "محطات" أو منازل قمرية ، يكمن دليل قوي على تبادل الأفكار . وتترك نجوم هذه المنطقة مجالًا واسعًا للنزوة في اختيار الأبراج ؛ ومع ذلك فإن التقسيم متشابه للغاية بين الأجناس الثلاثة لدرجة تستبعد افتراض وجود اختلاف أصلي .

وقد ورد ذكر الدائرة القمرية العربية ، التي تختلف عن الأخرى في حالات قليلة جدًا ، في القرآن الكريم على أنها معروفة للجميع . "ومن بين الهنود ، الذين تظهر دائرتهم القمرية أكثر الغرابة ، لا يوجد ذكر لها قبل عام 1150 قبل الميلاد . وفي كل الأدب الصيني القديم ، يُفترض وجود معرفة عامة بها ؛ ومن المؤكد أنها كانت معروفة بحلول عام 2300 قبل الميلاد . هل يمكننا أن نفترض ، مع ريشتهوفن ، أن هذه "المحطات" لها أصل مشترك في مساكن الأجداد في آسيا الوسطى ؟ دعونا الآن نلفت الانتباه فقط إلى حقيقة مفادها أن هذه السلطة لا تبحث عن البدايات الأولى للثقافة الصينية على التربة الصينية ، إلا فيما يتعلق بالحرث غير الكامل للأرض وصناعة الحرير . لكن سؤال "من أين ؟" لا يمكن أن يبحث عن إجابة إلا في الغرب ؛ وهذا يدفع أصل هذه الحضارة الغريبة المزعومة إلى جذور الحضارة في غرب آسيا .